المستشرقون وضررهم على الاسلام

بيني وبين مرجليوث

بقلم الدكتور حسين الهراوي

نترك للأستاذ الفاضل صاحب « المعرفة » – إذا شاء – أن يذكر الظرف الذي أحرجه في مناقشاتنا معه مناقشة خاصة ، جعلته يستدل برأي « مرجليوث » الذي بعث به إليه في خطاب أطلعنا عليه ، والذي دون فيه رأيه عما نكتب من ضرر المستشرقين على الاسلام ، خصوصاً وقد تناولنا مرجوليث نفسه بالتخصيص ، لأنه في نظرنا أنموذج لايجعل الناس يطمئنون إلى مايكتبه المستشرقون عن الاسلام ، وعن محمد عليه السلام .

قال مرجوليث : « أما ما كتب الدكتور حسين الهراوي في ذم المستشرقين ، فلو كان ما أودع مقالته من الشخصيات تعلق بالآداب لم يكن ما يمنع من الخوض في الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب ، وأما المسائل التي ذكرها فلست أرى فائدة في مداخلتها لكونها أقرب إلى منبر الخطباء منها إلى مجالس الأدباء »

د . س . مرجليوث

ورداً على ذلك نقول : إننا تناولنا من آراء « مرجليوث » نقطتين مما كتبه في التاريخ العام للعالم في الفصل التاسع والثمانين .

الأولى أنه قال: إن عبد الله يطلق على الشخص المجهول ؛ وربما كان له مثل هذا المعنى عند إطلاقه على والد النبي .

والثانية : أنه قال في نفس الفصل ، وفي صحيفة ٢٣٩٨ : « إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لايمكن تقليده أو الإخبار بأمور يمكن التحقق منها ، ولم يكن للنبي وسيلة لمعرفتها ، وإننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين – عندما أذيع – لم يسلم من النقد ؛ فالأمر الأول أن ذوق الأسلوب الأدبي يختلف كباقي الأذواق الخ . . . »

وكذلك قال في هذا الفصل: إن محمداً – عليه السلام – اعترف في مبدأ رسالته بمعرفته القراءة . ولنناقش نقط مرجليوث هذه التي يرى ردنا عليها فيما مضى ، ليس له علاقة بالأدب العربي . فأما عن والد سيدنا محمد ، فنحن ننكر على أدب أستاذ في جامعة أكسفورد ، أن يوجه مثل هذا

الطعن لنبي يدين بدينه ملايين المسلمين ، وأن يتفوه بتهمة ترفع أبسط قواعد الآداب العامة عن أن توجهها لأى الناس .

وثانياً : إن مرجوليث لايعرف شيئاً من الأدب العربى، وإلا لعلم أنه كان فى العرب نسابون ، ولو أنه تكلم أولا عنهم ـ وعن مصادر الشك فى أقوالهم وتنسيبهم ـ لكان لنا أن نناقشه بالأدلة العلمية ، أما وأنه لم يذكر شيئاً من هذا فدليل على أنه لايعرفه .

وثالثاً : لأن جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيراً ؛ ولو كان مجهول الأب ماعرف له عم ولا جد ؛ وهذا يدل على أن مرجوليث لايعرف شيئاً من تاريخ سيد نا محمد عليه السلام .

رابعاً : إن عصبية محمد عليه السلام حمته فى مبدأ رسالته ، ولو كان مجهول الأب ما كانت له عصبية ؛ فاذا كان مرجوليث لا يصدق شيئاً من هذا ، فليقل لنا هو كيف يريد أن نصدق كلامه ؟ وكيف أمكن وجود أشخاص تربطهم بالنبى الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام ، إذا كنا ننكر كل ذلك لأن مرجوليث قالها ؟ إذن فعلى العقول السلام ! ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنته ضميره من يقول هذا ؛ وعلى أى المراجع الموثوق بها عول فى بحثه ؟ فهو إما لايعرف شيئاً مطلقاً ، وأن ما يريد التشهير والتشنيع ؛ وهذا مالايشرف الباحثين .

ثم فليجبنا : أليست الأنساب والنسابون جزأين من صميم التاريخ والأدب العربى ، أم هى ضروب من خطب المنابر ؟ وإذا كانت ضروباً من خطب المنابر ، فكيف حفظ التاريخ أنساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية ؟ وكيف أمكن معرفة نسب والدته وزوجته خديجة ؟ أم كيف أمكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امرىء القيس وغير أمرىء القيس ؟

أما القول فى مسألة إعجاز أسلوب القرآن بأنها مسألة ذوق ، فانى أرى أن مرجوليث ـ كما نستدل من تعبير خطابه ـ ذو أسلوب ملتو ركيك، بجعله آخر شخص يؤخذ برأيه فى مسألة الذوق الكتابى، بعد أن تحدى القرآن نفسه الناس بل الانس والجن مجتمعين، أن يأتوا بسورة من مثله، فما استطاعوا. فلم يبق فى نظر صاحبنا مرجوليث إلا نقد الاسلوب بميزان الأذواق التى تختلف دقة ورقة ، ونحن معه على أن يكون الشرط الاساسى أن تكون هذه الأذواق سليمة ، تتفهم روح العربية. والمستشرقون هم أبعد الناس عن تفهم تلك الروح، ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الأجنبية، وإن كانت بعض مقدمات الكتب التى طبعوها ، قد كتبت باللغة العربية ، إلا أن الحكم على أساليبهم، قد لايرضيهم من وجهة الأدب الكتابى الفنى .

وإذا كان مرجوليث حصر إعجاز القرآن فى الأسلوب والإخبار بالغيب ، فقد فاته أن ضروب الاعجاز فى القرآن كثيرة ومتنوعة ، وليس من موضوعنا شرحها ، وإنما نحيل القارىء إلى ما كتبناه عنها فى مباحثنا فى الرد على المستشرقين ، وأضرابهم المبشرين[1] .

على أننا نسائلهنا أستاذنا مرجوليث : ماقوله دام فضله فى أنواع الاعجاز العلمى التى أثبت العلم الحديث مدى صدقها . ونذكر منها على سبيل المثال : «وجعلنا الرياح لواقح» ، و «خلق الانسان من علق» ـ أى دود الحيوانات المنوية ـ و « خلقنا كم أطواراً » ؛ وهى تتمشى مع العلم جنباً إلى جنب ؟

فهل كشف العلم عن إعجاز هـذه الآيات إلا حديثاً ؟ وهل كان الميكروسكوب ، وعلم تكوين الأجنة معروفاً من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟

ولا يفوتنا أن نتكلم عن النقد ، فالانتقاد هو أسهل شىء فى العالم ؛ فقد ينتقد شخص ما الخلقة البشرية ، بأن عينى الانسان فى وجهه، وليس له مثلهما فى قفاه لينظر من الخلف والأمام، وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الأقدام ، ويستحسن أن يمشى الانسان على يديه رافعاً قدميه فى الهواء ! كل هذه أنواع انتقادات قد يراها أهلها صحيحة ، ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على منتقديها .

وهذا هو النقد الذى يوجه إلى تجاهل نسب النبى الكريم ، فأسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد التشهير والتشنيع .

ثم ماذا يقول فى فهمه تفسير « اقرأ وربك الأكرم » بأنها اعتراف من النبى الكريم بمعرفة القراءة ، فهل هذا يدل على تفهم روح القرآن ؟

ولقد أطيل البحث إذا استقصيت آراء مرجوليث فى مصادر القرآن التى يقول بها ،ويقول بها معه المستشرقون الذين على غطه ، فقد ادعوا أن النبى عليه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ، ثم حفظ كل التاريخ الفارسى ،ثم عرف كل الأديان الهندية القديمة ، كما اطلع على كل حكم الصين فأخرج من كل هؤلاء كتاباً سماه القرآن .

ومعنى ذلك أن الدراسات التى استنفدت القرون الأولى حتى القرن العشرين لدراستها ، وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة ، والتجوال بين آثارها البالية ، كل هذا ، قد تعلمه محمد عليه السلام فى سياحته للشام ، فإذا رجعت إلى التاريخ وجدت أن هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة شهور ، فهل فى هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا أسلوب الناقد ، لم فى صميم الأدب العربى والتاريخ ؟ !

الدكتور حسين الهراوى

(١) راجع فى هذا «مجلة المعرفة» ، ابتداءاً من عدد يونيو سنة ١٩٣٢ وما بعده .